محاولة للفهم

يجب أن نفهم على وجه دقيق ما هو «داعش»؟ قبل أن نفكر في سبل مواجهته وحصاره، وتضييق الخناق عليه، وربما هزيمته في معركة حاسمة، لا يبقى منه بعدها شيء، أو لا تتمكن فلوله من إعادة إحيائه، ولا حتى التطور في اتجاه تشكيل تنظيم جديد على أنقاضه.

ويخطئ من يظن مع «داعش» أن عليه أن يفكر في تنظيم تقليدي، كتلك التنظيمات التي توزعت على خريطة العالم الإسلامي بدون تساوي منذ سبعينيات القرن العشرين، أو في تنظيم الإخوان الذي ظهر قبل هذا بنصف قرن على الأقل. فداعش ليس مختلفا فقط في الدرجة عن سائر ما سبقه من تنظيمات وجماعات، إنما هو مختلف في التكوين والتشكيل، وفي التصرف والتدبير، وفي الأهداف والغايات التي وضعها لنفسه، أو تلك التي وضعها من صنعوه، أو تحكموا في جزء منه، وقبل هذا في الفكر، الذي لم يقف طويلا عند دراسات الفقه والشريعة، لينطلق إلى دراسات إجرائية آنية، تجسر الفجوة بين القول والفعل.

ودراسة داعش أو معرفته ليست بالأساس مسؤولة علماء الدين، أو علماء السياسة والمشغولين بها، إنما يحتاج إلى تضافر جهود علمية، في الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد وعلم النفس والتكنولوجيا والاتصال. فبقدر تركيب داعش يجب أن يكون تركيب المداخل إليه، والاقترابات منه، ومحاولات دراسته وفق منهج علمي.

إن داعش تنظيم ديني تقليدي، في البذرة التي انطلق منها، فكرا وتنظيما، لكنه تجاوز تقليديته تلك بحكم عدة عوامل، يمكن ذكرها على النحو التالي:

١. استفادته من خبرات وتجارب جماعات سبقته، والتي انتهت إلى الإخفاق في تحقيق أهدافها، وآخرها «القاعدة» الذي أُنهك وتراجع دوره، وتم ترميم البعض وجوده بحديث عن تحوله من تنظيم إلى مجرد فكرة.

٢. حداثة أوعصرنة الدول التي ساهمت في صناعته، حيث وضعت إمكاناتها في خدمته، وهي إمكانات متطورة بالطبع، تستعمل أحدث ما توصلت إليه العقول والعلوم والتقنيات.

٣. استفادة التنظيم من قدرات بعض العناصر التي دخلت إليه طواعية، وبعضها تعلم في أحدث الجامعات والأكاديميات، وهؤلاء أهدوا خبراتهم وعلمهم لداعش طواعية وعن يقين، وهم ينتمون إلى دول وثقافات مختلفة، ولديهم خبرات متنوعة. وقد يقول قائل إن هذا

كان أيضا في القاعدة، التي تشكلت من شباب منحدرين من مختلف الدول الإسلامية. لكن داعش تجاوز هذا إلى انضمام غربيون أقحاح إليه، وهو ما لم يتوفر للقاعدة بالقدر نفسه.

٤. مدى ربط أحداث ووقائع بالحالة الداعشية، أو الإيهام والإبهام بشأن داعش، والتي تجعل من الممكن لأجهزة أستخبارات أن تقوم بعمليات نوعية في سياق الصراع بين الدول وتنسب ذلك لداعش، وبالتالي تعطيه مزيدا من الرهبة والمكانة والجاذبية.

٥. يرتبط بالديناميـة أو التطور الداخلي الذاتي للحركة الإسلامية المتطرفة التي ترفع السلاح وتمارس الإرهاب، والذي قد يحدث نتيجة تراكم خبرة لدى القيادات والأعضاء، بحكم تفاعل هذه الحركة مع السياق الاجتماعي والسياسي المحلي والدولي، وهي تبدو في هذه الناحية أشبه بالفيروس الذي يتمحور في مواجهة المضادات التي ترمي إلى القضاء عليه أو حصاره وتقليل فاعليته.

٦. تخفف التنظيم من كثير من الحمولات التاريخية، شرعية وفقهية، التي كانت تقيد حركة بعض التنظيمات التي سبقته، وقد تعرض داعش لنقد مفرط في هذه الناحية من زعيم القاعدة الحالي أيمن الظواهري وغيره. فداعش لم

obeikan.com

يعد مهموما بهذه الحمولات إلا في اصطياد عناصر جديدة وتجنيدها من باب الدين، وتعبئة عناصره في المعارك باسم نصرة الله، وأداء فريضة الجهاد.

وشكلت هذه النقطة سببا للخلاف بين كثير من الجماعات الدينية المتطرفة على مدار تاريخها، ووصل الخلاف في بعض الحالات إلى الانشقاق والتقاتل.

لكن داعش لم يعبأ بكل هذا، وراح يتعامل ببراجماتية بحتة في المواقف التي يتعرض لها، فصارت «الغاية تبرر الوسيلة» لديه، ولم يعد معنيا بأي قيد ديني حقيقي يمكن أن يمنعه من السير نحو أهدافه.

وفهم داعش يتطلب أن نقوم أيضا بتشريح التنظيم، وهذا لن يتم دون تبيان مصادر الكتابات والدراسات حوله. فرغم أن التقرير المطول الذي أصدره مركز مكافحة الإرهاب التابع للأكاديمية العسكرية الأمريكية في ويست بوينت بولاية نيويورك عن داعش يؤكد في سطوره الأولى أن التقرير يستخدم بيانات «فريدة من نوعها» فإنه يعترف بأن «أحد التحديات في فهم الطريقة التي يعمل بها التنظيم حاليا، والتهديد بعيد المدى الذي يشكله، هو أن معظم المصادر المفتوحة تركز على جانب وحيد من نشاطاته مثل تمويله أو معاملته الوحشية للمدنيين» ثم يقول: «هذه النظرات المركزة على أجزاء محددة لا تعطي معلومات كافية، كما أن

أحد التحديات الشديدة الشديدة والمتأصلة أمام هذا النوع من الدراسات والتحليلات هو نقص مصادر المعلومات الأساسية حول التنظيم .. فعندما يتعلق الأمر بداعش فإن كمية المعلومات المتوافرة محدودة نسبيا».

إن هذا التقرير الذي ترجمه مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية تحت عنوان «الجماعة التي تسمي نفسها دولة: فهم تطور تنظيم الدولة الإسلامية وتحدياته» يبين، رغم اجتهاد من أعدوه في الاستعانة بمصادر قوية وتحليلها على وجه علمي، مدى الصعوبات التي تواجه أي دراسة علمية حول داعش، الأمر الذي قد يُسقط الباحثين المتعجلين في فخ مقولات ودعايات التنظيم، حين لا يجدون غيرها أمامهم، أو في فخ الدعايات المضادة التي تنبع أساسا من الحرب النفسية التي تمارس ضد داعش، وترمي أيضا إلى تقبيحه بما يجعله غير جاذب لشباب ينطلي عليه ما يقوله التنظيم عن نفسه، وحياة الذين يعيشون في كنفه وتحت سلطانه، ليخفي حقيقته البشعة.

بالطبع، فإن داعش يمنع أي دراسة له عبر «الملاحظة بالمشاركة» إذ لا يمكن لباحث أو دارس أن يدخل إلى الأرض التي يسيطر عليها التنظيم ويجري مقابلات أو يراقب عن كثب ما يجري. فالتنظيم إن اكتشف أحدا على هذا النحو سيقتله حتما، بعد أن يوجه له تهمة التجسس. وفي تاريخ التنظيمات المتطرفة نجح باحثون قلائل في اختراق

obeikan.com

صفوفها ودراستها، لكنهم تحايلوا حتى يصلوا إلى أهدافهم. فمثلا تظاهر الإنجليزي ريتشارد ميتشيل بإعلان إسلامه، وانخرط في صفوف جماعة الإخوان، وأعد عنها واحدة من أفضل الدراسات. ويستخدم الباحث الفرنسي فرانسوا بورجا إخباريين ووسطاء، حتى يتمكن من دراسة التنظيمات المتشددة في بلدان عربية عدة، خصوصا الجزائر ومصر.

في العموم، هناك عدة مصادر لجمع معلومات حول داعش، ومن ثم دراسته على وجه علمي، وبقدر المستطاع، يمكن ذكرها على النحو التالي:

١. كثير من المعلومات المتوافرة عن داعش أتت من منشقين هاربين. فهناك من انتمى إلى التنظيم لكنه لم يطق الاستمرار في صفوفه، فتركه وهرب خوفا من أن يقام عليه «حد الردة» بقطع الرقبة. وتعامل الدارسون مع أقوال هؤلاء باعتبارها «شهادات عيانية» يمكن الاعتماد عليها، بعد إمعان النظر فيها، واستعمال وسائل الصدق المتعارف عليها منهجيا في التحقق من المعلومات، أو على الأقل تجنيب تأثير حجم الدعاية والكذب فيها إلى أدنى حد ممكن.

٢. هناك معلومات يوفرها سكان محليون، في سوريا والعراق، ممن وقعوا تحت حكم داعش. لكن الخوف، بل الرعب الشديد، الذي يعيشه هؤلاء يجعلهم عاجزين

عـن الإفصاح عـن كل مـا يعرفونـه. فهـم يخضعـون لرقابـة شـديدة، فيمـا ينطقـون بـه أو يكتبونـه علـى مواقـع التواصـل الاجتماعـي، ويتنقلـون مـن مـكان إلى مـكان، بـلا توقـف، حتـى لا يتـم رصدهـم.

٣. بعـض المعلومـات توفرهـا السـلطات العراقيـة والسـورية الـتي تواجـه داعـش في الأرض الـذي يسـيطر عليهـا مـن البلديـن، أو في المـدن الـتي يهاجمهـا بـين حـين وآخـر. وهـذا الصنـف مـن المعلومـات، وإن كان لا يسـلم مـن ألـوان الدعايـة، فإنـه غايـة في الأهميـة، نظـرا لأن مصـدره يمتلـك، أكثـر مـن غـيره، وجـودا علـى الأرض، واختراقـا لصفـوف التنظيـم، لاسـيما أن كثيريـن مـن الساسـة والمثقفـين الذيـن وقعـت المـدن الـتي يقطنونهـا تحـت سـلطان داعـش، لهـم روابـط قويـة بسـلطتي البلديـن.

٤. هنـاك المعلومـات التقليديـة لاسـيما تلـك المتعلقـة بالجغرافيا، والإمكانيـات الاقتصاديـة، والتركيبـة السـكانية. فداعـش ليـس تنظيمـا سـريا مغلقـا، بـل هـو يقـدم نفسـه بوصفـه سـلطة تحكـم شعبا، ولـو بالقهـر أو الإجبـار، وتسيطر علـى أرض مـن دولتـين، لهـا خصائصهـا الطبيعيـة، ويسـكنها بشـر في مـدن وقـرى، معـروف عنهـا الكثـير، قبـل أن يظهـر داعـش علـى السـاحة. وأفـادت هـذه المعلومـات في تقديـر جانـب كبـير مـن الموجـودات الاقتصاديـة الـتي بحـوزة التنظيـم، وبوسـعها أيضـا أن تسـاعد في فهـم وسـائل

سيطرته، وإمكانية قيام حركات مقاومة محلية ضده في الأماكن التي يسيطر عليها.

٥. توجد معلومات توفرها أجهزة المخابرات، لكن المتسرب منها يخضع لأغراض واتجاهات كل جهاز استخبارات على حدة، وهو شحيح قياسا إلى ما بحوزة تلك الأجهزة، التي يمكن لها أن تعطي بعض ما لديها إلى باحثين بعينهم، أو تعد هي تقارير مطولة، لكن يظل هذا قاصرا على اختياراتها ورغباتها ومصالحها، وليس متاحا أمام كل الباحثين والدارسين.

٦. الصحفيون المغامرون ممن يتمكنون من التسلسل إلى المناطق التي يسيطر عليها داعش. لكن حياة هؤلاء يحفها خطر شديد، فلو أُكتشف أمرهم سيكون مصيرهم القتل المروع، مثلما حدث للمصور الصحفي الأمريكي جيمس فولي الذي كان يعمل مع وكالة «جلوبال بوست» الإعلامية الأمريكية، واختطفه داعش في ٢٢ نوفمبر ٢٠١٢ خلال تغطيته لأحداث الحرب الأهلية السورية وبقي محتجزا لديه إلى يوم ١٩ أغسطس ٢٠١٤ حيث قام التنظيم بقطع رأسه.

٧. توجد المعلومات التي يسمح بها داعش عن نفسه ويسربها بمعرفة أجهزة معنية في التنظيم، وهي الأكثر خضوعا لتلاوين الدعاية، لاسيما أن التنظيم بات بارعا في هذا

الأمر. ومع هذا يمكن التعامل مع تلك المعلومات ليست باعتبارها الحقيقة، إنما هي إدراك داعش لنفسه ودوره وأهدافه. وهناك معلومات التي تتساقط من منتمين للتنظيم دون ترتيب مع أجهزة الإعلام والدعاية، مثل ما يكتبه الدواعش على صفحاتهم بمواقع التواصل الاجتماعي «فيس بوك» و«تويتر»، وما يصورونه ويطلقونه على «يوتيوب».

٨. الخبرة السابقة للتنظيمات الإرهابية، فداعش ليس أول تنظيم يحمل السلاح، أو يقتطع جزءا من دولة ويعلن عليها إمارته، فقد سبقته «جماعة التوحيد والجهاد» في إعلان دويلة في العراق، وسيطرت «طالبان» على الجزء الأكبر من أفغانستان إلى أن تمت إطاحتها عام ٢٠٠١، وسيطرت جماعات متطرفة على أجزاء من الصومال. وكل تنظيم لاحق في سلسلة التطرف والإرهاب المسنود إلى الإسلام يتأثر بسابقيه سواء في الفكر أو في الحركة، ومن ثم يستفاد من خبرة التعامل مع التنظيمات السابقة في فهم تفكير وتدبير التنظيمات الحالية واللاحقة.

٩. المصادر الفكرية والفقهية التي يستمد منها داعش آراءه، ويبني تصوراته، ويتخذ بعض قراراته، وهي كتاب «ملة إبراهيم» لأبي محمد المقدسي، و«إدارة التوحش» لأبي بكر ناجي، و«معالم في الطريق» لسيد قطب، و«فصول في الإمامة والبيعة» لأبي المنذر الشنقيطي، و«مسائل من فقه الجهاد» لأبي عبد الله المهاجر، و«دعوة المقاومة

الإسلامية» لأبي مصعب السوري، و«معالم الطائفة المنصورة في بلاد الرافدين» لميسرة الغريب، و«رفع الالتباس عن ملة من جعله الله إماماً للناس» لجهيمان بن محمد العتيبي، و«أهل التوقف بين الشك واليقين» لحلمي هاشم، والعمدة في إعداد العدة» و«الجامع في طلب العلم الشريف» لسيد إمام المعروف باسم الدكتور فضل، وهو أبرز منظري تنظيم الجهاد والقاعدة. فمثل هذه الكتب تساعد في فهم الأطر التي ينطلق منها التنظيم، والأسانيد والإحالات التي يسوغ بها سلوكه، وبعض الأهداف التي يصبو إليها، وبعض الأساليب القتالية التي يتبعها.

١٠. الخبرة السابقة للتنظيمات المسلحة، اليسارية واليمينية، التي عرفها العالم في التاريخ الحديث والمعاصر، لاسيما في بلاد مثل السلفادور، وإريتريا، ونيبال، والبيرو، وسري لانكا، حيث ظهرت العديد من الحركات والمليشيات التي كانت تمارس العنف وتنتهج أسلوب حرب العصابات في بعض الأحيان. وهناك ما يدل على أن داعش استفاد من ميراث هذه الحركات، خاصة أن أجانب ينتمون إلى جنسيات مختلفة قد انخرطوا في صفوف داعش.

١١. ما جاد به الباحثون من تحليل لأفكار داعش وتصرفاته، مستخدمين أدوات واقترابات ومناهج البحث العلمي، ومنزلين إياها على ما لديهم من معلومات، لتعطيهم أفقا وعمقا، عبر التحليل، الذي يمكنهم من التخمين

obeikan.com

والتكهن وترميم النقص في المعلومات والتصريحات والوثائق المنسوبة لداعش، واستعمال الخيال والحدس، بما يمكنهم من تحديد ملامح التنظيم، ورسم السيناريوهات المستقبلية بشأنه. وقد أنتج هذا الجهد كتبا وأبحاثا ودراسات عديدة، بلغات عدة.

ولابد للدارسين من أن يعتمدوا على هذه المصادر جميعا، كي يقتربوا أكثر من هذا التنظيم الغريب، الذي لا يرى منه إلا جزء ضئيل طاف، بينما يغطس أغلبه بعيدا عن الآذان والعيون والأفهام، ويجعل إعداد دراسة علمية عنه مسألة ليست سهلة أبدا.

كما أن فهم داعش يتطلب فحص مسمياته، لنعرف الدوافع والأهداف التي تقف وراءها. فنحن نلاحظ أن أعداء «داعش» وأنصاره لا يطلقون عليه اسما واحدا، بل تتزاحم في الساحة الإعلامية، وسياقات التحليل السياسي، عدة أسماء لهذا التنظيم، تشكل جميعها ألوانا من التفاعل، تفرضها روافد التفكير ومنابعه، ومقتضيات المصالح والمنافع، وطرق التعامل والتفسير والتحليل، ومسارات الأهداف والمقاصد، ومصادر التمويل والتوجيه.

وليس هذا بشيء جديد في تاريخ التعاطي، سلبا أو إيجابا، مع الحركات والتنظيمات والجماعات الدينية المتطرفة والإرهابية طيلة تاريخها، القديم والحديث والمعاصر.

وفي زماننا تعددت أسماء بعض الحركات، وكانت لأجهزة الأمن ووسائل الإعلام، المقروء والمرئي والمسموع والإلكتروني، دورا بارزا في هذا الموضوع.

فعلى سبيل المثال، لا الحصر، كان شكري مصطفى يسمى تنظيمه التكفيري «جماعة المسلمين»، ولم يكن من الطبيعي أن تتعامل أجهزة الإعلام المصرية مع المسمي كما وضعه صاحبه، لأنه ينطوي على إيجابية كبيرة، بل فيه شعور بالاصطفاء والنقاء والعمق، فأطلقت عليه ما يستحق أن يُسمى به وهو «التكفير والهجرة».

وأطلق أسامة بن لادن على الكيان الذي أنشأه «الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين»، لكن عُرفت، على النطاق الأوسع والأكثر تأثيرا، باسم «القاعدة» استنادا إلى أن نقطة انطلاق ابن لادن والذين كانوا معه هو «قاعدة الجهاد» التي تأسست في باكستان، لاستقبال المقاتلين الذين جاءوا من دول إسلامية عدة لخوض المعارك ضد الاتحاد السوفيتي المنهار في أفغانستان.

وهناك من لا يسمي «جماعة الإخوان المسلمين» كما أطلق عليها مؤسسها حسن البنا، لأن الاسم فيه إيجابية أيضا، ولذا يقف كثيرون من مناوئيها عند حد «الإخوان» أو «جماعة الإخوان»، بل هناك من حذف الأول المهموزة وأطلق عليها «جماعة الخوان»، أو «الإخوان المتأسلمون».

ويمتد الأمر إلى اللافتة العريضة التي تعمل تحتها كل هذه الجماعات وهي «الإسلام السياسي»، فتوالت تعبيرات «المتأسلمون» و«الجماعات المتأسلمة» و«الإسلامويون» و«الجماعات الدينية السياسية» و«الماضويون» و«الجماعات المتطرفة» و«التنظيمات الإرهابية» و«الجماعات السياسية ذات الإسناد الإسلامي» و«الخوارج الجدد» و«الأصولية» و«جماعات العنف الديني» .. الخ.

وحين ظهر داعش كان هذا مستمدا من الحروف الأولى لاسم: «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، وبينما بقي هناك من يقف عند الاسم المختصر «داعش» هناك من يكتب الاسم كاملا مثلما وضع أصحابه وأرادوا. ثم توالت التسميات من قبيل «تنظيم الدولة» و«الدولة الإسلامية» وبات أفراد التنظيم يحملون اسم «الدواعش» وتصرفاتهم تنعت بـ «الدعشنة» أو «الداعشية»، باعتبارها نمطا من السلوك العنيف المتوحش، والاتجاه المفرط في تفكيك الدول، وقمع الناس وقهرهم، وتوظيف الدين في أسوأ سلوكيات بشرية من قبيل القتل والتدمير والتخريب والسبي والاغتصاب والسرقة والقهر والقسوة.

أما بالنسبة لأجهزة الإعلام فإننا نجد أنها ركزت على أربعة مسميات على النحو التالي:

١. «داعش»، وهو إن كان يتفق مع الاختصار الذي حدده التنظيم، فإنه يتكئ على الصورة الذهنية السلبية، التي

ترسخت في الرؤوس عن تصرفات أعضائه المتوحشة، والتي تحملها أخبار القتل والحرق والاغتصاب وسرقة الآثار والأموال والنفط، وإجبار الناس الذين يقطنون الأماكن التي يسيطر عليها التنظيم على هيئات وسلوكيات تفقدهم حريتهم، وتنال من إنسانيتهم، وتضر بمصالحهم.

٢. «تنظيم الدولة» وهو تعبير يحاول أن يكون محايدا أو يراه أصحابه متساوقا مع الوصف الدقيق لـ «داعش» فهو تنظيم بحكم تركيبته العسكرية، وارتباطاته بالخبرة التاريخية لما سبقه من تنظيمات إرهابية ومتطرفة، وهو دولة لأنه يسيطر على أرض يسكنها الملايين ويعمل فيها قوانينه ويقوم ببعض الوظائف التي تقوم بها حكومات الدول حيال شعوبها.

٣. «الدولة الإسلامية» وهو تعبير مغرض، تستعمله أغلب وسائل الإعلام الغربية، وهو ينطلق من التعامل مع «داعش» بوصفه يمارس مهام دولة، وإن كان غير معترف بها، ومن ربطه بالإسلام، كأيديولوجية تحكم تصورات التنظيم وتصرفاته، رغم أنه لا يعنيه كثيرا الالتزام بـ«الشرع الإسلامي» كبعض التنظيمات الأخرى، التي أظهرت تمسكا عميقا لما تصورته أو توهمت أنه «صحيح الدين». وربط داعش بالإسلام على هذا النحو يخدم توجه من يمعنون في «الإسلاموفوبيا» أو يستقر في رؤوسهم

أن الإسلام دين عنيف بطبعه، وأن دولته إن قامت ستكون على هذه الشاكلة، أو من جعلوا من الإسلام عدوا، وفق النزعة التي ظهرت عقب انهيار الاتحاد السوفيتي، لدى أمريكيين من بين واضعي السياسات وخبراء الاستراتيجية والكُتَّاب ورجال الدين.

٤. «تنظيم الدولة الإسلامية» وهو اسم ينطوي على كل المعاني التي وردت سابقا، وربما لا يستنكره داعش، الذي لا يريد لسلطانه أن يقتصر على العراق والشام إنما يمتد إلى مناطق أوسع في العالم، حتى أنها تتجاوز الجغرافيا التي ساحت فيها الإمبراطورية الإسلامية في أوج قوتها والممتدة من غانا في غرب أفريقيا إلى وادي فرغانة في آسيا الوسطى.

obeikan.com